

تاريخ لبناني

فينيقيًا والتاريخ

بقلم الأستاذ انطوان خوري حرب

من التسميات التي شملت لبنان في العصور القديمة، اسم "فينيقيا"، الذي ارتبط أكثر من غيره بتاريخ لبنان ووافق تحديده الجغرافي بالشكل الأقرب حدود لبنان الحالية.

وفي الألف الثالث قبل الميلاد حوالي ٢٦٧٠ ق.م. تذكر الكتابات المصرية أن من بين الذين هزمهم الفرعون "ني وسروع" الأسرة الخامسة شعب "الفنهو" أو "فنخو". هذه التسمية قد تأتي من جذر "فنخ" الذي يعني بحسب تفسير أول: "أسر" و "ربط" نسبة للأسبويين الذين "أسرهم" أو "ربطهم" الفراعنة أثناء حملاتهم على البلاد الواقعة على السواحل الشرقية للبحر المتوسط. فيكون "الفينيقيون" هم "الأسرى" أو "المربوطون". وبحسب تفسير ثانٍ "فنخ" تعني: "حطب" (نسبة للشعب الفينيقي الذي كان يصدر الخشب إلى مصر من بلاده الجبلية فينيقيا والتي كانت تغطيها غابات كثيفة من أشجار الأرز والسرو والشربين فيكون "الفينيقيون" هم "الحطابون").

وكلمة "فنخو" تتناغم جيداً مع كلمة "فينيقي" التي ظهرت حسب رأي العالم موريه Moret مع هوميروس القرن التاسع ق.م. مما يحمل البعض على الاعتقاد بأن الإغريق استعملوها تمثلاً بالتعبير المصري.

ويذكر بعض المؤرخين أن فينيقيا اقتصرت على شريط ساحلي دون المناطق الداخلية، ومبرر ذلك أن المدن الفينيقية الشهيرة كصور وصيدا وبيروت وجبيل وأوغاريت كانت كلها على الشاطئ. هذه المدن كانت تشكل ممالك مدنيّة، ولكن كما كان لكل من هذه الممالك مستعمرات في البحر. فقد كان لها قرى ومراكز تجارة في البرّ تتبعها كأمالك عامة وبعضها للثروة الخشبية. وكشاهد على هذه المراكز، نذكر قرية كبيرة تابعة لمدينة صور هي "قديثا"، وكانت قرب جبل الجرمق في الجليل الأوسط. وفي سفر القضاة، إشارة إلى وجود مركز لصيّدون عند جبل حرمون هو قرية "لايش ٠ يريجج" إنها "تل القاضي" حالياً. جاء في سفر القضاة ١٨:٢٧... إن اليهود "ضربوهم بالسيف واحرقوا المدينة بالنار .. ولم يكن من ينقذ لأنها لايش بعيدة عن صيّدون.

ويذكر العلامة Moret بأن "كل مدينة من فينيقيا" كانت تبسط أملاكها في عمق يتراوح ما بين ١٢ و ٥٠ كلم من الشاطئ إلى الداخل، عبر الجبال، بخلاف ما يزعّمه رينان Renan بأن فينيقيا ليست سوى ضاحية حول المرافئ الساحلية.

فينيقيا كانت تشمل إذاً الشريط الساحلي الممتد من جبل الكرمل ومدينة دورا جنوباً، حتى جبال الأمانوس ورأس شمرا) أو غاريت في الشمال بطول ٣٠٠ كلم بالإضافة إلى سلسلة من الجبال المحاذية للساحل حتى عمق ٥٠ كلم شرقاً. وبذلك تكون فينيقيا قد ضمت كل لبنان بالإضافة إلى قسم ساحلي شمالي من سوريا الحالية وإلى جزء من شمال فلسطين.

أما بالنسبة إلى تفسير كلمة "فينيقيا" فقد جدّ العلماء والمؤرخون في التقصي عن حقيقة هذا الاسم وإمكان اشتقاقه من أصل سامي، فما توصلوا إلى نتيجة مرضية. أما العالم بوشار فيرتأي بأنه مشتق من لفظة "بنو عناق". لكن هذا الرأي لم يعول عليه أحد نظراً للبون الشاسع بين لفظتي "فينيقيا" و "بنو عناق". وقال آخرون انه مشتق من لفظة "فتق" التي تأويلها "عاش عيشاً ناعماً" أو من "فينم" التي تعني الحجارة الكريمة والمرجان الأحمر، لكن لم يؤخذ بهذين الرأيين لأنهما تخمين لا سند له ولا صحة فضلاً عن أن الفينيقيين كانوا يسمّون أنفسهم أما بالاسم العرقي العام "كنعانيين" وأما بأسماء مدنهم: "صيدونيين" و "صوريين" و "جبيليين".

وقد جاء في كوسموغونية سنخوني أتن، أن "كناع كنعان هو أخو أوزيريس الملقب "بفينيق". ودمج ديودورس الصقلي بين تجوال "اوزيريس" حول العالم لتتقيف الناس وبين رحلة "قدموس" ابن أجنور ملك صور وشقيق "فينيق" و "كيليكوس" الذين ذهبوا إلى بلاد الإغريق بحثاً عن أختهم "أوروبا" التي خطفها "زوش" كبير آلهة الإغريق فنقلوا معهم إلى الغرب الفكر الشرقي الكنعاني وعلومه وفنونه وخصوصاً الحرف الأبجدي الذي لا يزال يعتمد على العالم حتى اليوم. وفي الإلياذة يذكر هوميروس "أوروبا" بصفتها ابنة "فينيق" الذي يدمج اسمه باسم "اجنور" المرادف لاسم البعل الإله الفينيقي.

اعتمد الإغريق تفسيرين لكلمة "فينيقيا" تبناهما فيما بعد عدد كبير من العلماء والمؤرخين: التفسير الأول: "فينيقيا" - "فونيكس" النخل

اسم "فينيقيا" مشتق من "فونيكس" أي "النخل" باليونانية. والمسكوكات المتأخرة لبعض المستعمرات الفينيقية مثل عتيقة وقرطاجة وقاديش تحمل صورة النخل، الشجر المقدس الذي كان يرمز إلى الإله "دامرون" أو "تاميراس" ومنه اشتق اسم التمر، والد ملكرت - هرقل السوري والذي كان نظير ممثل الأمة الفينيقية بكاملها". كما أن لاسم "دامرون" وهو الذي أعطى اسمه لمدينة الدامور شأناً كبيراً في قصة أوزيريس الملقب بفينيق الذي ربّي في "تيغا" في بلاد جبيل. فهو الذي رافقه في رحلته ليعلم الناس زراعة العنب وهذه الزراعة لبنانية. وقد رجّح عدد من العلماء والمؤرخين أن يكون اليونان قد اعتبروا هذه البلاد بلاد "النخيل" فسمّوها بلغتهم "فينيقيا".

لكن المؤرخ جورج كونتنولا يرى مسوغاً لتسمية "فينيقيا" ببلاد "النخيل"، وان كانت الكلمة اليونانية "فونيكس" تعني "النخيل" لأن هذا الشجر لا يختص بهذه المنطقة. فهو يرى أنه من الأصح اعتبار كلمة "فينيقيا" لا اسماً، بل صفة تعني في اليونانية "أحمر".

التفسير الثاني: "فينيقيا" - "فونيكس" أحمر"

هذا التفسير لاسم "فينيقيا" يرجّحه معظم علماء الجغرافيا والتاريخ والآثار في أيامنا الحاضرة. ولكن ما هو مسوغ إطلاق هذه الصفة - التسمية على "فينيقيا" ولماذا لُقّب الفينيقيون بالحمرة؟! هناك تعليان لهذه التسمية:

التعليل الأول: كان الفينيقيون يمتازون بصناعة الصباغ الأرجواني المستخرج من نوع من الصدف يدعى الموركس Murex الذي يكثر خاصة في أنحاء صور. ولأهمية هذه الصناعة وللدور الذي لعبته في اقتصادياتهم أحاط الصوريون طريقة استخراج الصباغ بهالة من الكتمان الشديد ليحافظوا على احتكارهم المطلق لهذه الصناعة. وللسبب ذاته نسب الفينيقيون اكتشاف هذا الصباغ إلى آلهتهم. ويروي الاونوماستكون القاموس أن هرقل أو ملكرت كان يتمشى ذات يوم على الشاطئ الفينيقي وبرفته "تيروس" صور إحدى حوريات الماء الفينيقيات التي كان الآلهة متيماً بها. فعرض كلبها على صدفة وجدها بين الصخور ولوّن فمه بعصارتها، فأعجبت "تيروس" باللون وأقسمت أنها لن تستقبل الآلهة ما لم يقدم لها ثوباً مصبوغاً بهذا اللون الأحمر البهي لتزهر به على اقرانها. وقد أضطر الإله إلى البحث عن كمية من هذه الأصداف واستخرج مادتها الملونة لصبغ رداء لحبيبتة "تيروس" التي بنى لها فيما بعد صور وسماها باسمها.

وكان الأرجوان وفقاً على الملوك ورؤساء الكهنة وكبار رجال البلاط والأشراف حتى أنه أصبح يدل على العظمة والمقام الرفيع. وكانت كلمتا أرجوان وملكى متلازمتين إلى حد أنهما كانتا تؤديان المعنى ذاته كما حدث للفيلسوف السوري "فرفوربوس" الذي يدعى في مسقط رأسه "ملكوس" واران أن يترجم اسمه إلى اليونانية فلم يجد له أستاذه أفضل من كلمة "فرفوربوس" ارجواني باعتبار أن الملك والأرجوان مترادفان. ويذكر مارسيل أن ثمن ثوب مصبوغ بالأرجوان بلغ في أيامه ٤٢-١٠١ م. ما يعادل ألفي دولار في العملة الحالية.

هذه الشهرة التي بلغها الفينيقيون في صناعة الأرجوان جعلت اليونان يطلقون عليهم صفة "فونيكس" ومنها فينيقيون أي "الحمرة" نسبة إلى اللون الأرجواني.

التعليل الثاني: يذكر هيرودوت بأن الفينيقيين يعتبرون أن موطنهم الأول هو مناطق الخليج الفارسي الذي هو جزء من الأوقيانوس الهندي والمسمى قديماً البحر الارتيري Mer

Erythre أو البحر الأحمر. وقد عُرفَ قسم من سكان البحر الارتيري "بالحميريين" أو "الرجال الأحمر". وانتقل الفينيقيون بعد ذلك إلى بلاد "آدوم" التي تعني "أحمر" بالعبرانية. وكان المصريون يسمّون المنطقة الواقعة بين البحر الارتيري أو البحر الأحمر "وفينيقيا" "تا - ديشر" (ta-desher) أي "الأرض الحمراء".

ويستنتج العالمان دوسّو Dussaud وايسفلدتُ Eissfeldt بأن الفينيقيين تركوا مستقرّهم الأول في منطقة النقب بين خليج السويس وإيلات العقبة وانتقلوا إلى سواحل البحر المتوسط حيث لُقّبوا "بالحمر" نسبة إلى موطنهم الأول أي "البحر الأحمر" أو البلاد الحمراء "آدوم".

ولكن، أليس الأصح القول بأن "البحر الأحمر" وبلاد "آدوم" و "تا-ديشر" قد سُميت كذلك نسبة إلى الفينيقيين "الحمر" الأرجوانيين الذين أقاموا مستعمرات لهم في هذه المناطق الجنوبية الشرقية بعد انتقالهم إليها من مدنهم الأصلية على سواحل المتوسط، أي من صور وصيدا وجبيل وارواد، حيث أثبتت الحفريات الحديثة وجود آثار للإنسان ترجع إلى مختلف العصور الحجرية في الطبقات السفلية لهذه المدن؟

ثم أن عدم ورود ذكر لبلاد باسم "فينيقيا" ولقوم اسمهم "فينيقيون" في أية بقعة من بقاع الأرض ولا في أي تاريخ قبل أن يوسع الإغريق دائرة انتشار هذه التسمية ويثبتها هوميروس، هو البرهان الأكيد على أن "الفينيقيين" ليسوا طارئين على "فينيقيا".

وتأتي شهادة المؤرخ فيلون الجبيلي القرن الأول ميلادي، وهو أولى الناس بالكلام عن بني قومه، لتؤكد على أن الفينيقيين هم سكان البلاد الأصليين Autochtones أي أنهم لم يأتوا لا من سواحل البحر الأحمر أو من سواحل الخليج الفارسي ولا من شبه جزيرة سيناء ولا من أي مكان آخر. أما اليوم وعلى ضوء تطور العلوم التاريخية والاكتشافات الأثرية الجديدة والأبحاث الأنتولوجية الحديثة، فيمكننا القول: إن الفينيقيين هم "حصيلة" امتزاج عرقي بين العناصر البشرية الأصلية التي كانت قد كوَّنت مجتمعاً حضرياً على أرض "فينيقيا" منذ عصور ما قبل التاريخ قبل الألف الرابع ق.م. والعناصر البشرية الداخلية التي تعاقبت على هذه البلاد واستوطنتها منذ الهجرات المسمّاة اصطلاحاً "سامية"، أي منذ بدء العصور التاريخية نهاية الألف الرابع ق.م. لقد كانت أرض "فينيقيا"، المتمثلة بأقرب ما يكون بلبنان الحالي، والتي تتفرد بخصائص متميزة، بمثابة "مرجل" صهر هذه العناصر المختلفة فكيف طبائعها القومية وخصائصها النفسية الموروثة، واكسبها الخصائص البيئية المحلية من فيزيولوجية ونفسية ... هذا التفاعل القوي ضمن الشروط البيئية الطبيعية كان عامل إغناء للعنصر "اللبناني"، الأولى بحق إرث "فينيقيا" والأولى بواجب

الحفاظ عليه ... لبنان فينيقيا ال ٦٠٠٠ سنة تاريخ وحضارة.
إن أسم لبنان يشع في نفوس حامله افتخاراً واعتزازاً ينبعان من تراث حضاري تاريخي ذي أبعاد عالمية، فإن واقع جهل اللبنانيين أو تجاهلهم للتراث اللبناني من جهة، وعملية التجهيل المتعمدة لهذا التراث ومحاولة تشويهه من جهة أخرى، عوامل تؤدي كلها إلى تمزيق الوحدة البشرية اللبنانية وبالتالي إلى تفتيت الوحدة الجغرافية الطبيعية للبنان وإلى تغيير هويته.
إن ما يهب على لبنان من غربه حيناً أو من شرقه حيناً آخر، ومن جنوبه مرة ومن شماله مرة أخرى، ما استطاع يوماً أن يمحو اسمه أو يطمسه. لكن هذا الإسم الذي خطته الأنامل فوق رملى الشاطئ، هو الاسم ذاته الذي نقشته الأيدي في صخور الجبل، فتناقلته الشعوب والأمصار والأجيال بتواصل دائم ضمن جغرافية طبيعية ثابتة وأجال تاريخية مستمرة.